السفير السورى
عيسى درويش

عشــقت الأدب وأردتــه طريقا لى
ولكن القدرْ كان لى بالمرصاد.

تحقيق الحلم

ما أغرب تدابير القدر! يأمر وينهى ويخطط وينفذ وفق ما يشاء ويعقد العزم على تحقيق أغراضه دون تردد.. ولا يملك البشر أمام جبروته سوى الاستسلام دون قيد أو شرط.

وحياة الكاتب والشاعر وسفير سوريا بمصر عيسى درويش مثل حي على ذلك.. أحب الأدب وعشقه وتحول إلى جزء من كيانه نما بداخله مع سنوات عمره، استمده من التفاف وجوه الناس الطيبين في بلدته اللاذقية حول موائد الإفطار في شهر رمضان.. من تجانس البحر بزرقة المياه مع الغطاء السماوى البديع.. من خرير الينابيع وانسيابها من بين الجبال.. فى هذا المناخ ترعرع ونشأ وتعلق عقله وقلبه بأذيال الكلمة المحسوسة في بيت من قصيدة شعر أو قصة قصيرة وقرر أن يكون الأدب ملجأه وملاذه..

□□□

ولكن هل تحقق له ما أراد؟

أتت الرياح بما لا تشتهى السفن.. كانت البعثة التى حصل عليها للدراسة بمصر بعد حصوله على الثانوية العامة ببلدته سوريا سنة ١٩٥٩م لدراسة الاقتصاد والعلوم السياسية وليس لدراسة الأدب.. فقد رشحه مكتب تنسيق جامعات مصر للالتحاق بكلية التجارة قسم محاسبة وإدارة أعمال.. كان ذلك أشبه بامتحان صعب عليه اجتيازه. فدراسة الرياضيات بعيدة كل البعد عن ميوله وأهدافه وتكوينه ولكنه التحق بكليته ونجح بتفوق فى السنوات الأربع وكان ثالث الأوائل على دفعته..وتخرج عام ١٩٦٣م ليكون الطبيعى هو العمل فى الحقل

الاقتصادى.. فإذا به يجد نفسه بوزارة الشئون الاجتماعية. حيث أوفده مجلس الوزراء السورى للعمل بها بعد حصوله على البكالوريوس وعودته إلى بلدته.. على اعتبار أن دراسته على نفقة الدولة ومن حقها الاستفادة منه فى المكان الذى تراه مناسبا لعطائه..

ولم يمض على عمله عام واحد بالوزارة حتى برزت مواهبه القيادية بشكل واضح وتمت ترقيته إلى مدير عام سنة ١٩٦٤م وأصبح لعيسى درويش شعبية. ونتيجة لجهده المتواصل تم انتخابه لقيادة حزب البعث على مستوى محافظة اللاذقية.. وتعيينه سنة ١٩٦٩م رئيسا لمجلس إدارة ومديرًا عاما لإحدى شركات سوريا للغزل والنسيج.

ومرة أخرى يجد عيسى درويش نفسه فى مجال لا يمت له بأى صلة.. وفى خلال ثمانى سنوات هى فترة عمله على رأس هذه الشركة تم انتخابه عضوا بالغرفة الصناعية ورئيسا لمجلس إدارة تنشيط الصادرات السورية.

وكلل نجاحه خلال سنوات حياته العملية فى تلك المناصب المختلفة بتعيينه وزيرا للبترول والثروة المعدنية عام ١٩٧٦ حتى عام ١٩٨٠.

ويحكي السفير عيسى درويش عن ذكرياته في تلك الفترة فيقول: وجدت نفسى من جديد فى مجال ليس لى به أى صلة، ولكنى بعد انغماسى بالعمل فى صناعة البترول اكتسبت خبرة جديدة؛ فاقتصاديات البترول والطاقة لها أبعاد محلية وعالمية وأطرافه الدولية أوسع بكثير وانعكاساته السياسية كبيرة جدًا.. ولأول مرة فى تاريخى المهنى والعملى أمارس عملًا يتناسب مع نوعية دراستى..

ولم تتوقف المفاجآت عن اندفاعها كسريان النار فى الهشيم فى حياة عيسى درويش.. ففى عام ١٩٨١م اختاره الرئيس حافظ الأسد ليكون سفيرا لبلدة سوريا بالكويت.

وفى النهاية تحقق الحلم الذى طالما راوده وطغى على ما عداه من أحلام.. كانت أمنية حياته أن يسمح له قدره أن يعود إلى مصر وطنه الثانى ليرد لها الجميل، فقد تعلم بجامعتها وتنفس هواءها وشارك أهلها الطيبين لقمة العيش..

وتحقق الحلم إذ قرر الرئيس حافظ الأسد اختياره ليكون سفيرا لسوريا بمصر عام ١٩٩٠م.. وما أبدع الحلم عندما نراه حقيقة ماثلة أمام أعيننا..

يقول السفير السورى: وصلت إلى القاهرة فى الثانية عشرة ليلا وقدمت أوراق اعتمادى للرئيس حسنى مبارك آنذاك فى العاشرة صباحا..

وبهذا فقد حصلت على رقم قياسى فى تقديم أوراق اعتمادى.. ومشاعرى هنا ليست غريبة على العلاقة الحميمة بين مصر وسوريا، فهما نصفان يجتمعان حينًا وينفصلان حينا آخر.. ولكنهما لا يستمران فى القطيعة طويلًا، فيعودان أقوى بكثير من المرة الأولى..

وليس عجبا فالرئيسان حسنى مبارك وحافظ الأسد.. كانا زميلين فى سلاح الجو بالجمهورية العربية المتحدة ويقيمان بالقاهرة. أحدهما فى سرب المقاتلات بإنشاص وهو الرئيس حافظ.. أما الرئيس حسنى مبارك فكان فى سلاح القاذفات ببلبيس.

أطلق على السفير السورى عيسى درويش لقب «رائد الدبلوماسية

الشعبية»، حيث استطاع أن ينزل إلى الناس والعمال في المصانع والتلاميذ والطلاب في المدارس والجامعات وللفنانين بمعارضهم وشارك المواطنين في أفراحهم وأحزانهم. من خلال هذا الاتصال تمكن من خلق علاقات قوية بين مصر وسوريا.. فقد كان أول سفير لسوريا بعد انفصالها عن مصر..

وعلى الجانب الآخر من شخصية السفير السورى عيسى درويش ظل شيطان الشعر والأدب قابعا بداخله لم يبارح نفسه قط.. فكتب كثيرا من أبيات الشعر نشرت فى العديد من المجلات والجرائد العربية.. كما ألف من الكتب فى الاقتصاد.

ففى عام ١٩٧٥م كتب كتابًا تعليميًا للعاملين فى المجالات العمالية والإنتاجية قام بنشره الاتحاد العام لنقابات العمال بسوريا.

وفى عام ١٩٧٩م ألف كتابا تحت عنوان «البترول ودوره فى معركة الصمود» وطرح هذا الكتاب من قبل جيش التحرير الفلسطينى.. وقام بكتابة رواية أسماها «حكاية على جبال القرية». كما ألف مجموعة من القصص القصيرة نشرت سنة ١٩٨٧م فى بعض المجلات العربية.

ولقد ظل بيت من الشعر يؤثر فى وجدان وعقل السفير عيسى درويش يذكره دائما ويحفظه عن ظهر قلب يقول فيه :

القوم قومك والعروبة وراءك
فعلام تكثر عندك الأقدار

ولكن الحياة لا تسير على وتيرة واحدة فليست كلها نجاحًا

وانتصـــارات، بل تتخللها الكثـــير من المصاعب ولكنها تثقل الإنســـان وتعيده مرة أخرى أكثر اتزانًا وفهمًا..

□□□

يتذكر السفير عيسى درويش بعضًا من هذه المواقف فيقول:

في سبتمبر ١٩٦١م أثناء زيارتى لبلدى سوريا أثناء إجازتى الدراسية من الجامعة بمصر.. كان الانفصال قد حدث بين مصر وســوريا.. وكان من الضرورى والحتمى العودة مرة أخرى إلى مصر لاســتكمال دراســتى ولكن الحدود أغلقت بين مصر وسوريا.

لم أستســلم.. هربت من بلدى ســوريا إلى بيروت.. وظللت أتســكع بشـــوارعها لعشرة أيام دون أن أملك قرشا واحدا فى جيبى. واستطعت برغم ذلك الوصول إلى الإســـكندرية حيـــث كليتى «التجارة» التى أدرس بها.. وأنا لا أعلم بعد ما عانيته من متاعب فى طريقى إلى الإســـكندرية هل سأقبل بالجامعة أم سيرفضون عودتى إليها؟

لن أنســـى أن أساتذتى بالجامعة وقفوا إلى جانبى وساندونى فى تلك المحنة..

مـــن هؤلاء الدكتور محمد عبد العزيز عجمية وكان وقتئذ عميدا لكلية التجـــارة ورئيس قســـم الاقتصـــاد.. والدكتور خيرت ضيفة رئيس قســـم المحاســـبة رحمه الله.. والدكتور محمـــد طه بدوى والدكتور عبد الرحيم يونس والدكتور محمد طلعت الجناشـــبى.. ولولا مســـاعدة هؤلاء لما قبلوا عودتى إلى الجامعة مرة أخرى..

ولأن للذاكـــرة جدرانًا تخط عليها الأحـــداث التى تتوالى بمرور الأيام

والسنوات بحياة البشر.. فلا يصيبها الصدأ.. بل يستدعيها عقل الإنسان وقتما يشاء.. يذكر السفير واقعة حدثت منذ ٣٢ عاما عندما كان طالبًا جامعيًا يدرس بمصر.. ففي ليلة الامتحان أصيب بحمى شديدة.. ارتفعت درجة حرارته.. خارت قواه.. وقرر عدم الذهاب لأداء الامتحان فليس لديه القدرة على ذلك.. ولكن تلك الأسرة المصرية التي كان يقيم معها.. الزوجان العجوزان عائشة عبد السلام وعم سالم هذان العجوزان اللذان أخذاه كابن لهما.. رفضا فكرة عدم ذهابه لأداء الامتحان.. قامت السيدة العجوز بتدليك جسده المحموم بالكولونيا وقام عم سالم زوجها بإعطائه الدواء..

وفي الصباح اصطحباه إلى مبنى الكلية.. وأدى امتحانه.. وحصل على تقدير جيد في هذه المادة بعد ظهور نتيجة الامتحان.. لا ينسى عيسى درويش هذين العجوزين اللذين كانا بمثابة والدين له ولولا إصرارهما على ذهابه لأداء الامتحان لضاعت عليه سنة كاملة من عمره.

ولا ينسى السفير عيسى درويش يوم ١٣ يوليو عام ١٩٦٣ بعد انتهائه من امتحان البكالوريوس كان جالسًا بمنزله بالإسكندرية وهو يشعر بأن عبئًا كبيرًا قد سقط عن كتفيه.. يحلم بالغد والمستقبل.. وإذا به يسمع طرقات شديدة على الباب.. وعند فتح الباب فوجئ برجال الشرطة أمامه، اصطحبوه معهم بتهمة أنه على اتصال بحزب البعث في سوريا.. وكان الانفصال قد حدث بين البلدين فحاول عيسى درويش أن ينفي التهمة لكن بلا جدوى.. قرروا ترحيله إلى سوريا في خلال ٢٤ ساعة وتم الحجز له فورا على باخرة خاصة بنقل البضائع في طريقها

إلى قبرص وعلى الباخرة لقى عيسى درويش كل الاهتمام والرعاية حتى إن قائد الباخرة أعطى له السرير الخاص به ليستريح.. كما قدم طاقم الباخرة له الطعام والشراب.. وعندما وصلت الباخرة إلى قبرص.. كان المفروض أن ينزله قائد الباخرة، ولكنه أبقاه معه ولم يتركه إلا عندما ظهرت سواحل سوريا..

تذكر عيسى درويش عند اقترابه من سواحل سوريا ومشاهدته لمدينته اللاذقية على مرمى البصر أنه كان يحمل ميدالية عليها صورة الراحل جمال عبد الناصر.. أحس برعب يتسلل إلى نفسه بسوريا لو شاهدوا هذه الميدالية فسيتهمونه بالناصرية فقام بإلقاء الميدالية فى البحر..

وكعادة الأقدار فى تلاعبها بمصائر البشر لم يصادف عيسى درويش أى نجاحات فى حياته العاطفية..

فأثناء دراسته بالجامعة.. شعر بقلبه يدق لزميلة له كانا معا طوال الوقت فى مدرج الدراسة وفى الترومای أثناء عودتهما وذهابهما إلى الجامعة معا وأحس بميل شديد نحو زميلته.

اعتبر نفسه دخل مرحلة جديدة عندما عرضت عليه زميلته استذكار دروسهما معًا بمنزلها. وهناك.. قابلته والدتها بترحيب شديد شعر وكأنه فى بيته.. وتعددت اللقاءات بمنزل زميلته.. يدرسان معا ومع كل زيارة كان عيسى يشعر بأنه اقترب خطوة من قلب زميلته وحبيبة قلبه.. وفى إحدى هذه الزيارات بينما كان يجلس مع زميلته بحجرة الصالون يستذكران دروسهما.. إذا بجرس التليفون يدق.. وتدخل والدتها لتقول لها خطيبك على التليفون.. أصيب عيسى درويش بالذهول: حبيبته

مخطوبة.. ولم تخبره إطلاقا بذلك.. لقد كانت قصة حب إذن من طرف واحـد.. عرف من والدتها أن مراد خطيبها ضابط وأنه دائما في وحدته العسـكرية فلا يزورهم كثيرًا.. ومن بعدها لم يذهب إلى منزل من كانت حبيبته قط!

□□□